وأخيراً ... سافرت بالطائرة!

براءة خضر

في أولى سنوات الدراسة الجامعية، قررت أن أنظر إلى نفسي بشكل مختلف، وأن أصنع لنفسي مكاناً في المجتمع. تطوعت في روضة قريبة، أذهب للعمل فيها عند تغيب بعض المربيات. ما أصعب الأيام الأولى التي كنت أمارس فيها دور المعلمة على أطفال في صف الروضة. أطفال يتحركون كثيراً، يصرخون بأصوات مرتفعة، يلعبون كثيراً، لا أعلم ماذا أفعل. جاءتني فكرة، جمعت جميع الطاولات وأسندتها إلى حائط الصف. رتبت الكراسي ودعوت الأطفال للجلوس عليها، والطفل الأكثر شغباً في الصف جعلته مساعدي، وكلما كان يتحرك أثناء سردي لقصة «ليلى والذئب» كنت أحول حركته إلى حركة وكأنها تحدث في القصة، ما شد انتباه الأطفال كثيراً إليها.

تدخل المديرة إلى الصف وتندهش من شدة انتباه الأطفال، فتحرك لي يدها من بعيد بأنها ستنضم لنا دون أن ينتبه الأطفال لمتابعة ما يحدث، شعرت حينها بالقوة، وأحسست أنني أملك الكثير لأعطيه.

في العام الدراسي التالي، قررت أن أقدم طلب وظيفة للعمل في الروضة، دعوت للمقابلة، وجاء سؤال المديرة: كيف ستتصرفين مع طفل هرب من الروضة وتريدين إرجاعه دون جعله يبتعد كثيراً عن نظرك؟

أجبت: سأتحدث معه بهدوء، وبكلام لطيف، حتى يرتاح لوجودي، ولا يستمر في الركض.

المديرة: يجب أن تكوني حريصة مع هذه الأعمار وتتعاملي معها وكأنك في ساحة حرب. فاجأتني النصيحة جداً، وللحظات فكرت بالتراجع عن طلب الوظيفة، ولكن فضولي دفعني إلى الاستمرار.

في العام 2010، كانت أول تجربة لي في التعليم كمعلمة بشكل رسمي لصف أطفال بعمر 4 سنوات، أطفال قضوا أيامهم الأولى في الدوام بكاء، وصراخ، وعض، وهروب، أيام لن أنساها، وبعدها بدأت ضغوطات العمل، فالمديرة تملي عليَّ الأوامر بشكل مستمر، حتى تمنيت لو أنني لم أعمل. أستمر في شق طريقي في تلك الوظيفة الصعبة، حتى جمعتنا يوماً تلك المديرة معلنة بأننا سننضم إلى دورتين تعليميتين خاصتين برياض الأطفال؛ واحدة مع مصادر الطفولة المبكرة، وأخرى مع مؤسسة عبد المحسن القطان. لم أتفوه بكلمة، فأنا لا أريد أن أضغط نفسي بين جامعتي ودراستي ومسؤولياتي الأخرى، ولكن القرار كان جاهزاً.

إنه اللقاء الأول. أصل متأخرة إلى المكان الذي تعقد

فيه الدورة بنصف ساعة. إنها المرة الأولى التي أذهب فيها إلى مكان بعيد عن مكان سكني، ووحدي، وألتقي بأشخاص لا أعرف عنهم شيئاً. دخلت إلى القاعة، كل الكراسي ممتلئة، فالعدد كبير، أجلس بجانب مربية ألتقيها للمرة الأولى، نتبادل الأحاديث والأفكار، فنقرر أن نبقى على اتصال، ومع الوقت تصبح تلك المربية إحدى أعز الصديقات التي كان لـ«القطان» فضل كبير في التقائها.

استمرت اللقاءات التي كنت أصفها بالصعبة جداً، فزميلتي التي ذهبت إلى الدورة الأخرى تتحدث عن أشياء أسهل بكثير من تلك التي تحدث في دورتي. لكن بعد لقاءات عدة، كنت أبتعد فيها عن أطفالي في الروضة، بدأت الأمور تتضح لي أكثر فأكثر، وبدأت أشعر بأنني أتعلم شيئاً جديداً، حتى جاءت مجموعة من المعلمين البريطانيين إلينا لمشاركتنا تجربتهم وخبرتهم في التعليم الذي كنا نتدرب عليه مع «القطان»، فشعرت حينها بأنها تجربة نوعية، ولا يمكن أن تجدها في أي مكان آخر. فرحت جداً بلقاء المعلمين الأجانب، فهذه أول مرة التقي فيها بأناس غير فلسطينيين، ويتحدثون اللغة التي طالما أحببتها وتمنيت لو أتقنها.

كانت المساقات متتابعة ومرهقة لأنها تحفز العقل على العمل بشكل مستمر ودون توقف، لكن كل واحدة منها كانت تترك أثراً كبيراً في نفسي، وأسئلة كثيرة، من بينها كيف سأقدم هذا كله لأطفالي؟ هل سأستطيع أن أقوم بذلك؟ فقررت أن أبذل جهدي في تعلم ما يقدم لي وفهمه بشكل جيد، ومن ثم أفكر كيف سأنقله إلى صفي.

ما زلت أذكر مساق الدراما في التعليم الذي قدمه لنا وسيم الكردي عبر قصة «الفقمة»، كان شيئاً جديداً، شدني كثيراً لموضوع الدراما التكونية، ومساق التعلم في سياق وتوظيف القصة مع مالك الريماوي الذي فتح لي أفقاً جديداً في تحفيز أطفالي على بناء تعلمهم، ومساق

جانب من مشاركة المربية براءة خضر في لقاءات الطفولة المبكرة مع برنامج البحث والتطوير التربوي/مؤسسة عبد المحسن القطّان.

نادر وهبة في الاستقصاء والعلوم، الذي جعلني أرى ممكنات لتعليم العلوم في كل زاوية من زوايا الروضة. كان كل مساق يحقق إضافة نوعية للبرنامج ككل، فكل مساق يفسر ما سبقه، ويمهد للذي يليه، إلى أن أصبحت أشعر بمتعة كبيرة في اللقاءات وما كان صعباً أصبح سهلاً وممكناً، وفيما بعد صار جزءاً من طريقتي في التعليم.

شيئاً فشيئاً كانت السنة الثانية مع «القطان» ومع روضتي أفضل بالنسبة لي، لأنني أصبحت أكثر علماً ودراية بما أقوم بتعلمه وبتعليمه لأطفالي. فالجانب التطبيقي لكل ما كنت أتعلمه كان يضيف إليَّ الكثير، ومن خلاله كانت تتضح لي أمور كثيرة لم أكن أفهمها في البداية. بدأت أشعر بأنني أمتلك قوة جديدة، حتى ظهر تميزي في الروضة، وعادت المديرة لتتبع ما أقدمه لأطفالي. كان يزعجها جداً أنها لا تعرف ما أعرفه، فحاولت أن تحبطني بقولها «هذا التعليم يصلح للروضات الأجنبية وليست لنا»، لكنني لم أكترث لما تقول، لأنها كل ما كان يشغلها هو المنهاج، وإتقان الحروف، والتمكن من مسك القلم، وكم الأناشيد التي يرددها الأطفال غيباً، ولم تنتبه يوماً لحاجات الأطفال أنفسهم.

جاء مشروع التبادل، حيث حضرت معلمة بريطانية تدعى «ليزا هنتون» إلى إحدى الروضات المشاركات في البرنامج لتعمل مع معلمة فلسطينية في تطبيق نهج عباءة الخبير مع أطفالها، فكنت ممن حضر أيام التطبيق هذه في تلك الروضة التي أضافت إليَّ الكثير، تجربة كهذه لا يمكنك أن تجدها في مكان آخر، ولا يمكنها أن تحدث كل يوم، تجربة تعلمت الكثير منها، وصححت مساري كثيراً وفتحت لي آفاقاً جديدة، فبعدها تم ترشيحي لزيارة إلى مدرسة تلك المربية البريطانية لأشارك معها تعليمها في صفها ومع أطفالها. لم أكن أتخيل يوما بأنني سأكون محظوظة إلى هذه الدرجة، أن يتم اختياري لأسافر وأنا تلك التي طالما حلمت بالسفر، واعتقدت أنه بعيد المنال، وأنه سيبقى حلماً فقط إلى أن تحقق مع «القطان»، سفر حقق كل ما حلمت به، التحليق بالسماء وبالفكرة وبالتجربة وبالعلم معاً.

حمل اليوم الأول كما باقي الأيام من زيارة المدرسة البريطانية الكثير من الدهشة: نظام مختلف، فريق عمل كامل يستخدم منهجية التعليم نفسها؛ وهي منهجية عباءة الخبير، يتبادلون الأفكار والمخططات بشكل مستمر،

المربية خضر مع أطفالها في نشاط خارج الروضة.

يعملون كخلية نحل بشكل متواصل لتقديم كل ما هو جديد لأطفالهم، وسائل تعليمية كثيرة ومتنوعة، منجزات الأطفال تزين الجدران والأبواب والنوافذ وحتى الأسقف. المدير هو واحد من الطاقم، يشاركهم كل شيء، الأطفال لا يترددون في طرح الأسئلة وخوض النقاشات وتحليل المواقف بكل ثقة، مدرسة تعمل مع طلابها على بناء ذواتهم واكتشاف عالمهم، تنمي لديهم الإبداع وتحفزهم على البحث بشكل مستمر، لا تركض خلف التحصيل الأكاديمي والمنهاج. معلمون احتضنونا بينهم من أول خطوة خطوناها نحوهم، فلم نشعر أننا غرباء، ولم تشكل اللغة أي عائق بيننا.

عدت إلى الروضة كأنني ولدت من جديد، فأنا محملة بالكثير مما سأقدمه لأطفالي. لمست في نفسي كم تغيرت، فالتعليم أصبح متعة، وأطفالي أصبحوا يأتون إلى الصف بكل حب وبكامل شغفهم وفضولهم، ولم يعد الصف غرفة، بل أصبح مرة كوكباً فضائياً، ومرة أخرى غابة كبيرة، أو بحراً عميقاً ... كانت أجمل سنة من سنوات عمري، حتى ظهر أثر التغيير الذي حدث عندي أمام زميلاتي في الروضة، فطلب مني مسؤول الروضة أن أعلمهن كل ما تعلمته في تجربتي مع مؤسسة «القطان»، وأخيراً، أحصل على اعتراف المديرة بأنني أصلح أن أكون مربية مبدعة لأطفالي، ويمكن لذلك التعليم الذي اعتبرته يوماً «تعليماً لمدارس الأجانب» أن يكون تعليماً لمدارسنا وروضاتنا.

بعد انتهاء دورة «القطان»، تمنيت لو يعود بي الزمن إلى الوراء لأغير تخصصي في الجامعة، واختار تخصص رياض أطفال، فأنا أعدت اكتشاف ذاتي من جديد، ووجدت أنني أكثر إبداعاً وتميزاً في العمل مع هذه المرحلة، فأنا أكثر ثقة اليوم بما أمتلك، والأهم إنني أكثر رضىً وفرحاً وإيماناً بدوري.

إلى أجمل وأرقى مؤسسة، شكراً جزيلاً لكم جميعاً فرداً فرداً، تحملتم صعوبة استيعابنا، وكنتم خير مصحح لنا، فالجيل الذي سيكون مبدعاً في الأيام القادمة أنتم محركه ومؤسسه. جعلتموني أتذكر أجمل وأفضل أيام وسنوات عشتها في حياتي.

روضة الوكالة الفلسطينية – أبو ديس

المربية خضر مع أطفالها في نشاط حول الإشارات المرورية.